الفصل الرابع :

الإسلام والإعلام

ليس صعباً أو من عسير الأمور أن يدعي الشرف وضيع أو يُنسب إلى الفضائل سافل ، ليس صعباً أن تطأ بقدمك زهرة أو أن تقطع شجرة أو أن تجرم في عين المظلوم عبرة ، أن تخنق لدى أهل الحق كلمة أو فكرة لتموت في صدر صاحبها بحسرة ، أن يُمجَّد باطل ويُتهم حق ويخوّن الأمين ويؤمن الخائن ، كل ذلك قد يروج ويتقلب ويموج ما دام الحق أخرس ضعيفاً قد نزل الميدان بلا درع أو سنان ، ومادام الباطل له ضرس وناب وألف لسان فيسحر بالبيان ويلفق ويبدل ويزور ويشكل بالألوان ما شاء من كذب وبهتان .

ولكن مهما سحابة دخان الباطل ارتفعت واتسعت إذا بها تحت شمس الحقيقة قد انقشعت ليرى كل عاقل ومنصف قد تحرر من أغلال الأوهام عقله وتخلص من سلاسل وقيود الأكاذيب فكره يرى الحقائق مجردة صادقة غير مزورة فيحكم بعدل ويزن بصدق ويتروى بحلم ويتحدث بعلم ، ذلك مطلب عزيز وواجب شرعي يستدعي همة كل منصف ويستنهض عزم كل مفكر ويهمس في أذن كل صاحب كلمة تُقرأ أو تسمع وخاصة ممن جعلهم الله في الحق أئمة فإن قيل زلة عالِم زلة عالَم فأنا أقول : واليوم زلة الأئمة زلة أمة ، ولا أقصد هنا حصر الإمامة في المحراب بل كل من كان من أهل الخطاب من سير خلفه وترسمت خطواته ، لكل هؤلاء أقول هذا وقتكم ، وتلك ساعتكم ، أن يقوم كلٌّ بدوره بما حمله الله من أمانة الشهادة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة١٤٣] وقد عظمت مكانة الكلمة اليوم وتأكد دورها في عصرنا هذا ، عصر

الاتصالات حيث اختصر الزمان وطُوِيَت الأرض وتواصل مشرقها بمغربها وأقصاها بأقصاها ، وليس هناك من عائق سياسي أو جغرافي يحول بين ذلك التواصل.

من هنا كان واجباً عليَّ القيام بأمانة الكلمة لا سيما وقد شرفني الله تعالى أن أكون أحد رجال الدعوة الإسلامية أحمل همها وأتقلب بين أفراحها وأتراحها أنام على حزن وأصحو على أمل وكيف لا أحزن؛ وأنا أرى الإسلام الذي ربى المسلمين على مكارم الأخلاق فحازوها ودلهم على سبل الخير فسلكوها ، فكان لهم في كل ميدان من ميادين الشرف والأخلاق والنبل لواء خفاق وسع في عزة ورحمة كل الآفاق ثم راحت أيدي التزوير والنكر بأقلام الكذب ومداد البهتان تخدع الإنسانية وتصدها عن دين الرحمة لتظهره في غير ثوبه النقي وتلصق به كل خلق دني ، ومما روج بضاعتهم الكاسدة ومخرت في مستنقعاتهم القذرة سفنهم الراكدة ما وصل إليه الإعلام اليوم من مكانة خطيرة جعلته من أقوى أدوات التأثير والتحول والتغيير .

لقد كانت الحرب قديماً تكاد تنحصر في الآلة العسكرية ، ثم تطورت لتكون حرباً إعلامية تزداد يوماً بعد يوم وساعدها على تبوء تلك المكانة أنها أصبحت في كثير من الأحيان هي العدة والتمهيد لمن أراد أن يُفني أو يبيد ، ما أقذرها من حرب غير شريفة وقودها المداد وغذاؤها الأحقاد وميدان قتالها العقول والقلوب والأفكار والأنظمة ، بلغت وسائلها من الانتشار ما بلغ الليل والنهار ، وشيئاً فشيئاً تكون الشعوب مهيأة لفعل أي شيء في سبيل فرض ما آمنت به واقتنعت بوجوب تحقيقه .

لقد نجحت كثير من وسائل الإعلام ـ ولابد أن نعترف بذلك- أن تصور المسلم بأنه الإرهابي القاتل واللص السافل والجمودي المتحجر والمتعلم المتعثر والمحارب المهزوم المتقهقر لنرى فصلاً عن عمد بين حاضر المسلمين ومحاولات إضعافه وإبقائه في تخلفه وبين ماضيهم في قوته وتألقه ، وقد ساعدهم على ذلك أيضاً ما يرونه من سيء الأخلاق ورديء المسالك التي قدمها كثير من المنتسبين

للإسلام حيث أروا من أنفسهم خلقاً مشوهاً بين يديه دواؤه وقد استحكم فيه داؤه ، إذا تقدم خطوة تعثر خطوات وإذا أفاق من نكبة رافقته نكبات.

إن من أخطر آثار الحرب الإعلامية أنها مفتوحة على الجميع ، نعم هناك اتجاهات لا يخشى عليها في كثير من الأحيان فهي أبعد عن التأثير العاطفي أقرب إلى الموضوعية والعقلانية ، وتلك هي طائفة المثقفين والمفكرين الذين يقرؤون ويحللون ولا تدفعهم الأحقاد أو تسوقهم الكراهية ، لكن هناك قاعدة عريضة من الشعوب فيهم السطحي الأهوج الذي يتأثر سريعاً وقد يترجم ما عُبئ به صدره من أحقاد إلى عمل غير محمود قد تكون له عواقب وخيمة ، والعمل الإرهابي لا يحتاج إلى دولة وأنظمة فقد يقوم به شخص واحد ، وهناك أيضاً عوام الناس الذين يخزنون عواطفهم ويستبقون غيظهم في خزانة شعورهم حتى إذا ما مُلئوا غيظاً وشُحِنوا عداءً جاء وقت الأزمات ليترجم البعض منهم ذلك في أرض الواقع ، وهنا نكون بين خطرين خطر عاجل وخطر آجل ولا ينبغي أن نستهين بواحد منهما .

ومن ثم كان لزاماً على كل من حمل رسالة الإسلام انتساباً وخاصة من ارتضاها دعوة وإبلاغاً أن يقوم بواجبه الشرعي مفنداً بسلاح الكلمة ولسان الحقيقة وطريق التوسط والاعتدال كل ما يثار من أباطيل وأوهام فلا تبرير لخطأ ارتكبناه ، ولاغمط لفضل عند غيرنا رأيناه ، فهنيئاً لمن اختاره الله لذلك أولئك هم الناجون الذين قال الله فيهم : ﴿ مَّعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف١٦٤] .

وقبل أن ألج في الحديث عن موقف المسلم من الحرب الإعلامية ينبغي أن نُذكِّر بأن دفاعنا عن الإسلام ليس خوفاً عليه ، فروحه حية باقية ، ورسالته خالدة محفوظة ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر٩] رسالة الرحمة والعدل لكل المخلوقين.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء١٠٧] .

محاور الحرب الإعلامية على الإسلام :

أخذت الحرب الإعلامية عدة محاور في سبيل الوصول إلى أهدافها منها التضخيم والتركيز والتكرار والمبالغة ليكون الخبر حديث الساعة حاضراً في الأذهان ويشكل الرأي العام المراد لتلك الوسائل ، أما الموضوعات التي راحت تركز عليها للتنفير من الإسلام فقد كانت كالتالي .

التشكيك في الإسلام كدين سماوي واتهامه بأنه دين القسوة والعنف والتشدد والإرهاب ، ومن خلال ذلك يسارعون بإلصاق العمليات الإرهابية بالمسلمين قبل معرفة الجاني ، التباين في الأحكام واختلال ميزان العدل في وصف الأعمال الإرهابية بغير معايير قانونية أو أخلاقية ، ففي حين توصف أعمال بأنها إرهابية بغض النظر عن صحة ذلك أم لا نجد غض الطرف عن إرهاب الدولة فلم نجد في كثير من الأحيان من قد تجرأ ليصف بالإرهاب دولاً تمارسه لما لها من ثقل سياسي وعسكري .

ولإثبات ذلك يتناولون بعض قضايا الحدود مثل قضية صفية النيجيرية ثم أمينة من بعد ذلك، ومن قبلهما الألماني والإيرانية ، الحجاب ، الميراث ، حرية المرأة وتحت هذا العنوان يتحدثون عن الحرية الجنسية ، حق الإجهاض ، التعدد ، الطلاق ، ضرب الرجل للمرأة ولماذا لا يكون العكس؟ الختان ، تبني قضايا الشذوذ ، اتهامهم الإسلام بأنه ضد الحضارة والتراث مثال ذلك تمثال بوذا في أفغانستان فمن أجل تمثال من الحجر قامت الدنيا وتكلم الإعلام وأثار جدلاً واسعاً مع قناعتنا بعدم جواز ذلك وفي نفس الوقت نرى دماراً هائلاً وتخريباً عاماً وشاملاً لبلد مثل العراق وما صاحب ذلك من قتل وتشويه وتحريق للملايين من البشر رجالاً وأطفالاً ونساءً مع تقصد علمائه ومفكريه بالاغتيال ولا نجد مثل هذه الضجة التي أثيرت على هذه التماثيل .

ورأينا عبر بعض الفضائيات العربية وعلى وجه الخصوص قناة الجزيرة التي نقلت للعالم كله بثاً مباشراً للمحرقة التي قام بها الجيش الرابع في العالم ضد بلدة

محاصرة عن أسباب الحياة ومقومات العيش الكريم وراحوا يفتكون بالأسلحة المحرمة وبدون هوادة كل صور الحياة وعادوا يلوحون بأيديهم علامات النصر على الطفولة البريئة التي لم يشفع لها سن بريء ولا مكان ولا زمان فقُتلوا في المدارس وملاجئ الأمم المتحدة ومع أمهاتهم في أسرَّتهم وهم نائمون ودُفِنت عائلات بكامل أفرادها الزوج والزوجة والأبناء تحت الأنقاض .

لا أظن أن هناك إنساناً على وجه الأرض فيه روح حية وقلب ينبض وشعور يحس به لا يبكي ألماً لهذا القتل الوحشي ، لا يبكي ألماً لمنظر تلك الفتاة التي كانت مع أبيها وأمها وأهلها وقد رأت أهلها أمامها غارقين في دمائهم بقذيفة من بارجة إسرائيلية على شاطئ غزة وهي تبكي أبي أبي ، لا أنسى تلك الفتاة التي وقفت على ركام بيتها تستخرج ثياب أخيها من تحت الأنقاض التي قبرت أهلها جميعاً بالقصف الإسرائيلي عليهم فحُصدوا جميعاً في لحظة واحدة هل رأى العالم ذلك ؟ .

ولماذا لم يظهر ذلك في وسائل الإعلام الغربية ، إن ما يظهر لا يمثل سوى النذير اليسير مما يجري على أرض الواقع ، ومن ذلك أيضاً إظهار البلدان الإسلامية من خلال الأفلام التمثيلية أو الوثائقية بصورة مزرية حيث التركيز على معاناتها ومشاكلها الاقتصادية والاجتماعية وتسليط الضوء على نقاط الضعف والتخلف ثم ربط ذلك بالدين ، الطعن في شخصية النبيﷺ مثال ذلك افتراءات جريدة الموندو في عددها الصادر بتاريخ..... . على شخص النبي ﷺ وسوف أذكر هذه الافتراءات والرد عليها بعد .

والمتتبع للإعلام يجد دائماً أنه قد اعتمد على الرصد والتتبع والعرض دون ذكر الدوافع والأسباب ، ولا تحليل الخبر تحليلاً موضوعياً ، وفي مقابل ذلك نجد قصوراً إعلاميا إسلامياً وغياباً عن عرض قضاياه والتي لو وجدت طريقها للرأي العام الغربي لوجدت منه التفهم بل والتعاطف والتأييد ، ذلك أن التفكير الغربي في عمومه يتسم بالعقلانية والموضوعية يحكمه المنطق والبرهان ، وأحب أن أذكر موقفاً لا أنساه : بينما أنا في مكتبي بالمركز الثقافي بمدريد إذا برجل قد جاوز الخمسين

ببضع سنين وعلى وجهه علامات الخوف بادية لرائيها وعيناه تحكيان توجساً وقلقاً ، فسألني : أنت إمام المركز؟ فقلت : نعم .

وبعد أن بادرته بالترحيب إذا بدماء وجهه تعود شيئاً فشيئاً وقد شعر بالاستئناس ثم عرَّفني بنفسه أنه مسؤول في إحدى الجمعيات المسيحية النشطة جداً في إسبانيا وعلى الفور وبعد أن شرب العصير قال : اسمح لي لقد جئت هذا المركز على وجل وخوف شديد منكم فلقد استشرت البعض في المجيء فقالوا لي : لاتذهب إلى المسلمين إنهم جموديون انعزاليون لا يحبون الآخرين ثم قال : لقد كانوا مخطئين وما تخيلت أن أُقابل بمثل هذا الترحيب ثم عرض عليَّ قائلاً : هل من الممكن أن تزور كنيستنا في طليطلة ــ كاتدرائية قديمة أثرية ــ ونتغدى سوياً ثم نتحدث بعد ذلك ؟ .

فأجبته بالموافقة وبينت له كيف أن النبي ﷺ ذهب إلى بِيَع اليهود وقابل قساوسة نجران في مسجده ، وحاورهم واستأذنوه أن يصلوا صلاتهم في مسجده ، فأذن لهم ، وأن تلبيتي دعوته ليس موقفاً شخصياً وإنما هي التزام ديني ، وذهبت إلى طليطلة مدينة التعايش في أوروبا إبان حكم الإسلام ، لقد شممت هذه الرائحة فور وصولي حيث شاهدت قبالة الكنيسة مسجداً أثرياً مفتوحاً للزائرين ، ووضع الغداء وقال واحد منهم : نحن نعلم أن المسلمين لا يأكلون الخنزير وقدم لي طبقاً من البيض والبطاطس ، فشكرتهم على اهتمامهم بمشاعرنا واحترامهم لديننا . وقلت في نفسي أداعبها : ولكن من أخبره بأن السمك حرام؟

وبعد اصطحابهم لنا بكل أدب وترحيب في جنبات الكنيسة ثم بين طرقات طليطلة دعوني لإلقاء محاضرة في جمعيتهم الرئيسية بمدريد والتي هي ملتقى لكل الأديان فلبَّيت على الفور وجاء يوم المحاضرة وذهبت حيث مقر الجمعية وإذا بحفاوة الاستقبال بداية لحسن الاستهلال وقبل المحاضرة وكما هو متبع أن يبدأ المضيف في التعريف بضيفه وهنا بيت القصيد وفرحة العيد ، حيث قال أمام الحاضرين بمختلف أديانهم ومذاهبهم : « اسمحوا لي أيها السادة باسمي واسمكم

واسم المسيحيين أن أقدم اعتذاري لإمام المركز الإسلامي ولكل مسلم على فهمنا الخاطئ عن المسلمين حيث إن وجود الإمام بيننا اليوم ليدحض كل ما اتُّهموا به من جمود وكراهية وعدم رغبة في الحوار .

من خلال معرفتي بالواقع الغربي الذي عايشته وخبرته أستطيع القول بأن الشبهات أو الاعتراضات والافتراءات تشكل عند عامة الناس عقبة كؤوداً وترسم بين المسلمين وغيرهم كثيراً من العوائق والسدود لفهم حقيقة الإسلام ، وأستطيع أن أجملها في قسمين :

الأول : وهو أن البعض لا يريد إلا إشغال الوقت بغير المفيد وإشباع الرغبات في حوارات غير مثمرة ، وتدور تلك الأسئلة حول تحريم الخمر والخنزير ، لماذا ترتدي المرأة الحجاب.. .

الثاني : شبهات لإفساد عقائد المسلمين وإظهار الإسلام على أنه دين غير قابل للتطبيق العملي والتأثير على عقول العامة وخاصة النساء بالمعلومات الخاطئة المنفِّرة.

أما بالنسبة للأول : فالأفضل في مقابلة هؤلاء أن نطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان٦٣] ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل١٠] و قوله تعالى : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف ١٩٩].

إن التشغيب الذي يثيره كثير من هؤلاء لهو أقرب بمعناه إلى الخوار منه إلى الحوار ، وقد نرد على هؤلاء ونجيبهم في حالات معينة حسباً لتقدير المصلحة والمفسدة .

القسم الثاني : ويكون الرد عليهم بمسلكين : الرد العلمي والرد العقلي والموقفان ثابتان من القرآن والسنة .

اعتراضهم على القرآن : الرد عليهم ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة ٢٣] ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة ٤٤ - ٤٦] .

اتهام النبي ﷺ بأنه كتب القرآن وجاء الرد عليهم ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت٤٨] ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس١٦].

وبعد قصة موسى يأتي قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [القصص٤٤].

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ [القصص٤٥] ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ [القصص٤٦].

وبعد قصة يوسف ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف ١٠٢] وبعد قصة مريم ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران٤٤] ثم يأتي الرد على كل قضايا الغيب ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود٤٩].

الرد العقلي: بالبراهين والأمثلة من ذلك قضية البعث: ﴿ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء ٥٠، ٥١].

إعادة الحياة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف٥٧]